معادلة القرآن للوجود الكوني

أ.د/ طه جابر العلواني

أمَّا الخطاب القرآني فإنّه يشكل عاصمًا للعقل الإنساني بمزاياه التي ألمحنا إليها، ومعادلته للوجود الكوني وحركته وخصائصه التي أشرنا، إليها، وكثير غيرها مما لم ينشر إليه فهو لم يحد من هذه السيولة: فثباته واستقراره وإطلاقه واستيعابه وتجاوزه وتصديقه وهيمنته ووحدته البنائية ومنهجية قراءته بالكون –التي رسمها مُنزل القرآن (تبارك وتعالى) واستيعابه لذلك كله – ومعادلته للكون وحركته، كل أولئك تشكل حائلا لا يخترق دون سيولة فهم، وتذبذبه ودون أن يحول ذلك دون يسره، مع الجمود على فهم محدد وإطلاق سلطة ذلك الفهم على سائر الفهم وفي سائر العصور.

موقف الشاطبي:

ومن هنا ما كان يخشاه نحو الإمام الشاطبي –رحمه الله–حين نص في موافقاته على عدم جواز تفسير القرآن بما لم ينقل عن أهل القرون الثلاثة[1] لا نخشاه نحن بذات القدر وكذلك لا نشارك الذين فهموا من بعض الأحاديث والآثار عدم تفسير القرآن بغير المأثور فيما ذهبوا إليه؛ لأنّ "الخطاب القرآني" لسائر العصور وللعالمين كافة، ولجميع الأزمنة ومختلف الأمكنة. فلو سلمنا هيمنة فهم أهل عصر من العصور عليه، وعدم جواز تجاوز ذلك الفهم لمن يأتي بعدهم، بل أوجبنا عليهم الالتزام بالقرآن وبفهوم من سبقهم لتفسير الخطاب القرآني فذلك يعني إلزام ما لا يلزم، وإيجاب ما لا يجب، والتسوية في صفة "الإطلاق" بين الخطاب القرآني وأفهام وتفسيرات متلقية وإسقاط واجبات التدبر والتفكر، بل ربما التلاوة ذاتها عن الأجيال اللاحقة بحجة قيام الأجيال أو القرون الأخيرة الأولى بذلك. وعلى هذا فقد يقال –إذن– يكفي فهم ما ورثوه لنا من آراء وتفسيرات وفهم عن أي جهد آخر منا. وكأن كل تلك الواجبات في التلاوة والتفكر والتدبر واجبات كفائية يكفي أن تقوم بها الأجيال السابقة لتسقط عن الأجيال اللاحقة.

---

[1] راجع الموافقات، للشاطبي.

وهذا ما لم يقل به أحد أو يذهب إليه، لكنه لازم لمن يدعي القول بما قال به الشاطبي ونحوه. وكيف يعقل أن يرضى الله (تعالى) منا بالنظر في قول قائل بكتابه أو ناظر نظر فيه، لم يأتنا من الله (جلّ شأنه) وحي بوجوب اتباعه لا جملة ولا تفصيلا؟ قد يكون الإمام الشاطبي قال ما قال: وهو يقصد الأحكام الثابتة المستقرة لا ينبغي أن تفهم –في نظره–أو تعطي تفسيرًا آخر غير ما فهمه السلف، ومهما يكن مراد الإمام الشاطبي فإن من الثابت بالقرآن ذاته أنه يجب على كل واحد من الناس أن يفهم آيات الكتاب بقدر طاقته لا فرق بين عالم وجاهل ليزول بالقراءة جهل الجاهل، وليعقل العالمون ما في آيات الكتاب من حكمة. فكل إنسان له في آيات الكتاب نصيب لا ينبغي أن يحرمه، ومن الممكن لكل منهم أن يتناول –من القرآن ما يحرك فيه دواعي الخير، ويصرفه عن دواعي الشر. فحين يقرأ الناس نحو قوله (تعالى): ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ* الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ* إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ* فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ* الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ (**المؤمنون11:1**) إن أي إنسان سوي عادي يستطيع أن يدرك من ظواهر هذه الآيات المعاني الإجمالية العامة التي تجعله يدرك حسن هذه الصفات وقبح اضدادها، وأن من فعلها كان من المتقين الذين يستحقون أن يرثوا الجنة. ومن جاوزها إلى اضدادها كان معتديا على نفسه ظالما لها. أما العالم فله أن يتعمق في معاني الخشوع، وتفاصيل ما يندرج تحت مفهوم اللغو، وتفاصيل أحكام الصلاة والزكاة والأمانة وأحكام النكاح وغير ذلك مما يمكن أن يعد فيه كتاب. وهذا التيسير للقرآن مع كثرة ما يشتمل عليه من المعاني هو وجه من وجوه إعجازه، وصفة من صفاته المميزة. فكيف يمكن لمن عرف القرآن حق المعرفة وعرف صفاته التي وصفه الله (تعالى) بها أن يهجره، أو يتجاوزه، أو يقدم عليه سواه، أو ينشغل عنه بما عداه؟ أو يتوهم ورود النسخ على آياته، أو افتقاره إلى غيره، أو توقفه على ما خلاه؟.

منهج التعامل مع القرآن:

سنحاول فيما يأتي أن نبين أهم معالم محددات القرآن المساعدة على بناء منهجية التعامل معه باعتبار مصدرًا لدراسة الظواهر الاجتماعية والإنسانية والمعرفة بصفة عامة.

أولا: لغة القرآن:

القرآن وصف نفسه بأنّه عربيّ، وأكد هذا الوصف مرات عديدة في مواقع عديدة من آياته وسوره ونجومه، وعروبة القرآن أحد أهم أوصافه وكونه عربيًا؛ لأنّ الرسول الخاتم (صلى الله عليه وآله وسلم) عربي؛ ولأنّ المخاطبين الأولين به عند نزوله في أم القرى وما حولها كانوا عربا، وإن كانت رسالته للعالمين كافة والقرآن نفسه يؤكد عالميته وعالمية الرسالة في آيات من قبيل:

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾(الفرقان:1)

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾(ص:87)

وذلك بشكل واضح وصريح، وعربي بمعنى اللسان العربي، وبمعنى الكلام الفصيح والواضح الذي لفصاحته وبلاغته يكاد يفهمه حتى من لا يعرف لغته، وقد استعمل بكلا معنييه في القرآن، والآيات التالية يمكن اعتبارها من النوع الأول:

﴿.. وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾(النحل:103)

﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾(الشعراء:195)

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا ..﴾(الأحقاف:12)

ويمكن اعتبار الآيات التالية من النوع الثاني[2]:

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف:2)

[2] راجع رسالتنا المطبوعة "لسان القرآن" مكتبة الشروق الدولية، القاهرة

﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا..﴾ (الرعد:37).

﴿ كَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا..﴾ (طه:113).

﴿ قُرآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الزمر:28).

﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (فصلت:3).

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ..﴾(الشورى:7).

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الزخرف:3).

وهو وإن نزل بلسان النبي، ويسره الله (تعالى) بهذ اللسان غير أنّ خطابه وجه بتدرج إلى جميع "الشعوب الأمية" التي لم يأتها قبل خاتم النبيين رسول، حتى إذا أخرج "الشعوب الأمية" من حالة الأمية إلى أهل الكتاب الذين غيروا وبدلوا ليصدق على رسالات أنبيائهم ويهيمن عليها، وبذلك يظهر الإسلام على الدين وتتوحد مرجعية البشرية حصرًا فيه ويتوحد الدين في الإسلام الذي بدأ بإبراهيم وتم واكتمل بمحمد –صلى الله عليه وآله وسلم–.

وعربية القرآن أو عروبته ليست مجرد صفة وصف القرآن نفسه بها لبيان الواقع، أو لمجرد ذكر اللسان الذي جاء القرآن به؛ لأنّ ذلك أمر بديهي، ولم تسق لمجرد بيان شرف العربية وسموها أو نحو ذلك من أغراض لا تعدو أن تكون ظاهرة بينة أو شبه بديهية لم تجر عادة القرآن أن يسوق آياته لتحقيق أغراض لهذه خاصة حين تتعدد هذه الآيات وتكثر؛ لكن القرآن المجيد أراد –والله أعلم– أن يقدم لنا أحد أهم المحددات المنهاجية التي تساعد على تلاوة القرآن حق التلاوة، وتعين التالين له على حسن قرائته وتدبره والتفكر فيه وتعقله وتذكره.

كما أنّ نزول القرآن بلسان النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– وإن جرى على سنة الوحي إلى الأنبياء بألسنة أقوامهم، لكن هناك فرقًا بين رسالات محصورة بأقوام الأنبياء الذين أرسلوا وأزمنتهم وبين رسالة عالمية خاتمة أراد الله لها أن تكون خاتمة الرسالات ونهاية النبوات وأن تظهر على الدين كله، فلو لم تكن هذه اللغة تستطيع أن تكون وسيطًا أمينًا يستجيب بخصائصه لدواعي الإطلاق والعالمية اللتين يتصف القرآن بهما لما استحق هذه المكانة، ولا نالت شرف حمل هذه الرسالة العالمية الخاتمة التي ستبلغ –وللأبد– ما بلغ الليل والنهار.

ولقد وفق عالم قريش —رضي الله عنه– الإمام الشافعي إلى إدراك هذا المعنى، وحسن إبرازه في رسالته الأصولية حيث قال "وفي العلم وجهان: الإجماع والاختلاف.. ومن جماع علم كتاب الله العلم بأن جميع كتاب الله إنما نزل بلسان العرب.. فالواجب على العالمين أن لا يقولوا إلا من حيث علموا. وقد تكلم في العلم من لو أمسك عن بعض ما تكلم فيه منه:– لكان الإمساك أولى به، وأقرب من السلامة له –إن شاء الله–. فقال منهم قائل: إن في القرآن عربيًا وأعجميًا، والقرآن يدل على أن ليس من كتاب الله شيء إلا بلسان العرب، ووجد قائل هذا القول من قبل ذلك منه، تقليدًا له وتركًا للمساءلة عن حُجّته ومسائلة غيره ممن خالفه. وبالتقليد أغفل من أغفل منهم، والله يغفر لنا ولهم. ولعل من قال: إنّ في القرآن غير لسان العرب وقبل ذلك منه: ذهب إلى أنّ من القرآن خاصًا يجهل بعضه العرب. ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبًا وأكثرها ألفاظًا ولا تعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي، ولكنّه لا يذهب منه شيء على عامتها، حتى لا يكون موجودًا فيها من يعرفه. والعلم به عند العرب كالعلم بالسُنَّة عند أهل الفقه لا تعلم رجلا جمع السنن فلم يذهب منها عليه شيء، فإذا جمع علم عامة أهل العلم بها أتى على السنن، وإذا فرق علم كل واحد منهم ذهب عليه الشيء منها، ثم كان ما ذهب عليه منها موجودًا عند غيره. وهم في العلم طبقات: منهم الجامع لا كثرة، وإن ذهب عليه بعضه ومنهم الجامع لأقل مما جمع غيره. وليس قليل ما ذهب من السنن على من جمع أكثرها دليلًا على أن يطلب عند نظرائه ما ذهب عليه حتى يؤتى على جميع سنن الله ، فيتفرد جملة العلماء بجمعها. وهم درجات فيما وعوا منها، وهكذا لسان العرب عند خاصتها وعامتها: لا يذهب منه شيء عليها، ولا يطلب عند غيرها، ولا يعلمه إلا من قبله عنها، ولا يشركها فيه إلا من اتبعها في تعلمه منها، ومن قبله منها فهو من أهل لسانها، وإنما صار غيرهم من غير أهله بتركه، فإذا صار إليه صار من أهله وعلم أكثر اللسان في أكثر العرب أعم من علم أكثر السنن في العلماء فإن قال قائل: فقد نجد من العجم من ينطق بالشيء من لسان العرب؟ فذلك يحتمل ما وصفت من تعلمه منهم، فإن لم يكن ممن تعلمه منهم فلا يوجد ينطق إلا بالقليل منه، ومن نطق بقليل منه فهو تبع للعرب فيه. ولا ننكر إذ كان اللفظ قيل تعلمًا أو نطق به موضوعًا:– أن يوافق لسان العجم أو بعضها قليلًا من لسان العرب، كما يتفق القليل من ألسنة العجم المتباينة في أكثر كلامها،

مع تنائي ديارها، واختلاف لسانها، وبعد الأواصر بينها وبين من وافقت بعض لسانه منها. فإن قال قائل: ما الحجة في أن كتاب الله محض بلسان العرب، لا يخلطه فيه غيره؟ فالحجة في كتاب الله. قال الله ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ..**﴾ (**إبراهيم:4**)، فإن قال قائل: فإنّ الرسل قبل محمد يرسلون إلى قومهم خاصة، وإن محمدًا بُعث إلى الناس كافة – فقد يحتمل أن يكون بُعث بلسان قومه خاصة، ويكون على الناس كافة أن يتعلموا لسانه وما أطاقوا منه، ويحتمل أن يكون بعث بألسنتهم، فهل من دليل على أنه بعث بلسان قومه خاصة دون ألسنة العجم؟ فإذا كانت الألسنة مختلفة بما لا يفهمه عن بعض: فلابد أن يكون بعضهم تبعًا لبعض، وأن يكون الفضل في اللسان على التابع، وأولى الناس بالفضل في اللسان من لسانه لسان النبي ولا يجوز –والله أعلم– أن يكون أهل لسانه أتباعًا لأهل غير لسانه في حرف واحد، بل كل لسان تبع للسانه، وكل أهل دين قبله فعليهم اتباع دينه، وقد بين الله ذلك في كتابه:

﴿ **بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ**﴾ (**الشعراء:195**).

﴿.. **وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا..**﴾ (**الأحقاف:12**).

﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ (**يوسف:2**).

﴿ **وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا..**﴾ (**الرعد:37**).

﴿ **وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا..**﴾ (**طه:113**).

﴿ **قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾ (**الزمر:28**).

﴿ **كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾ (**فصلت:3**).

﴿ **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا..**﴾ (**الشورى:7**).

﴿ **إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ (**الزخرف:3**).

قال الشافعي: فأقام حجته بأنه كتاب عربي في كل آية ذكرناها، ثم أكد ذلك بأن نفى عنه كل لسان غير لسان العرب في آيتين من كتابه:

﴿ **وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ**﴾ (**النحل:103**).

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ..﴾ (فصلت:44).

قال الشافعي: وعرفنا نعمه بما خصنا به من مكانة فقال:

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة:128).

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة:2).

وكان مما عرف الله نبيه من أنعامه أن قال:

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ..﴾ (الزخرف:44)، فخص قومه بالذكر معه بكتابه وقال:

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء:214).

﴿.. وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا..﴾ (الأنعام:92).

وأم القرى مكة، وهي بلده وبلد قومه، فجعلهم في كتابه خاصة وأدخلهم مع المنذرين عامة، وقضى أن ينذروا بلسانهم العربي لسان قومه منهم خاصة. فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده حتى يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، ويتلو به كتاب الله وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير، وأمر به التسبيح والتشهد وغير ذلك.

وما ازداد من العلم باللسان الذي جعله الله لسان من ختم به النبوة، وأنزل به آخر كتبه. كان خيرًا له كما عليه أن يتعلم الصلاة والذكر فيها، ويأتي البيت وما أمر بإتيانه ويتوجه لما وجه له. ويكون تبعًا فيما افترض عليه وندب إليه. وإنما بدأت بما وصفت من أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيره؛ لأنّه لا يعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحد جهل سعة لسان العرب، وكثرة وجوهه، وجماع معانيه وتفرقها. ومن علمه انتفت عنه الشبه التي دخلت على من جهل لسانه. فكان تنبيه العامة على أن القرآن نزل بلسان العرب خاصة نصيحة للمسلمين، والنصيحة لهم فرض لا ينبغي تركه وإدراك نافلة خير لا يدعمها إلا من سفه نفسه، وترك موضع حظه. وكان يجمع مع النصيحة لهم قيامًا بإيضاح حق. وكان القيام بالحق ونصيحة المسلمين من طاعة الله، وطاعة الله جامعة للخير.

أخبرنا سفيان عن زياد بن علاقة قال: سمعت جرير بن عبد الله يقول: "بايعت النبي على النصح لكل مسلم" وأخبرنا ابن عيينة عن سهل بن أبي صالح عن عطاء بن يزيد أن النبي قال: إنّ الدين النصيحة، إنّ الدين النصيحة، إنّ الدين النصيحة: لله، ولكتابه ولنبيه ولأئمة المسلمين وعامتهم".

قال الشافعي فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها، على ما تعرف من معانيها وكان مما تعرف من معانيها اتساع لسانها، وإن فطرته أن يخاطب بالشيء منه عامًا ظاهرًا يراد به العام الظاهر، ويستغني بأول هذا منه عن آخره. وعامًا ظاهرًا يراد به العام ويدخله الخاص، فيستدل على هذا ببعض ما خوطب به فيه. وعامًا ظاهرًا يراد به الخاص، وظاهرًا يعرف في سياقه أنه يراد به غير ظاهره. فكل هذا موجود علمه في أول الكلام أو وسطه أو آخره. وكانت هذه الوجوه التي وصفت اجتماعها في معرفة أهل العلم منها به، وإن اختلفت أسباب معرفتها، معرفة واضحة عندها، ومستنكرًا عند غيرها، ممكن جهل هذا من لسانها، وبلسانها نزل الكتاب وجاءت السنة، فتكلف القول في علمها تكلف ما يجهل بعضه. ومن تكلف ما جهل وما لم تثبت معرفته كانت موافقته للصواب –إن وافقه من حيث لا يعرفه غير محمودة –والله أعلم– وكان بخطئه غير معذور، إذا ما نطق فيما لا يحيط علمه بالفرق بين الخطأ والصواب".

لقد آثرنا أن ننقل كلام الإمام بطوله وبلفظه ليتبين من يحتاج أن يتبين أهميّة اللسان العربيّ، والعلوم والمعارف المتعلقة به وضرورة إتقانها وفهمها، والإحاطة بدلالاتها قبل التصدي للاجتهاد في النصوص والاستنباط منها، وإسقاط الأفهام والدلالات المصاغة بعيدًا عنها عليها.

ويقول الإمام الشاطبي "إن الشريعة عربية، فلا يفهمها حق الفهم إلا من فهم اللغة العربية حق الفهم؛ لأنهما سياق في النمط ماعدا وجوه الإعجاز، فإذا فرضنا مبتدئا فهم العربية فهو مبتديء في فهم الشريعة أو متوسطًا فهو متوسط في فهم الشريعة، فإن انتهى إلى درجة الغاية في العربية كان كذلك في الشريعة"[3] .

[33] الموافقات للشاطبي (50/5)

وإذا كان الإمام الشافعي –قد عبر بكل هذا الوضوح عن هذه المسألة الخطيرة فإن جمهرة أئمة الإسلام لم يكونوا أقل منه –رضي الله عنهم– انتصارًا لعربية القرآن، وتأكيدًا عليها، وتثبّتا بها. وحين نقوم بتحليل ما قاله الإمام في الرسالة وندرك أن هذه الرسالة قد أعدت في تلك المرحلة الخطيرة التي تزايد فيها الانقسامات في داخل صفوف الأمة. فعلى المستوى القومي كان الناس معسكرين: المعسكر الشعوبيّ الذي يضم الموالي والأعاجم الذين صاروا في دولة بني العباس جيش الدولة وقوتها الضاربة. والمعسكر العروبي وفي كل من هذين المعسكرين الكبيرين كانت هناك انقسامات فرعية عديدة. وعلى المستوى الكلاميّ كان هناك كثير من الفرق قد نشأت على مقولات معينة سرعان ما حولتها إلى إيديولوجيا تبني تجمعها وتحزبها حولها. وكانت أبرز الفرق "السنة" التي تحولت في عهد المتوكل الثاني إلى أهل "السنة والجماعة" و "المعتزلة" الذين كانوا الجناح الفكري والفقهي والكلامي للسلطة في عهود المأمون والمعتصم وشطر من عهد المتوكل. وعلى المستوى الفقهي انقسمت الأمة إلى "أهل رأي" و "أهل حديث". ويمكن القول إنّ "الرسالة" قد كشفت عن القدرات الهائلة للإمام الشافعي الذي استطاع أن ينتصر "للمعسكر العروبيّ ولأهل السنّة والجماعة ولأهل الحديث" في نص واحد كرسه لبيان قواعد "أصول الفقه"، وبذلك أعطاه أبعادًا معرفية لا تعطي فرصة لخصومه أن يستغلوه ضده. أو يضعونه في دائرة البيانات السياسية التي يقذف المتنازعون بها بعضهم بعضًا في دائرة ذلك السجال والانقسام الخطير في معظم الجوانب.

وخاصة تناوله لعربية القرآن وللبيان. إن كلام الإمام الشافعي عن العربية كلام في صميم "قضية المرجعيّة"؛ إنّه أراد أن يقول للعسكر الذين أصبحوا أصحاب السيف المحيطين بالخلفاء، والقادرين على تمشية أمور الدولة وتوجيهها الوجهة التي يريدون: مع كل ما تملكون من سلطان وصولجان فلستم بمرجعية لهذه الأمة شرعية، تستطيعون أن تفرضوا بالقوة ما تريدون، لكنكم لن تزرعوه في الأرض سيبقى مجتثًا فوقها يمكن أن تذروه الرياح؛ لأنّ العربية هي المنطق، وهي الأساس وليس لكم فيها نصيب، ولكنه لم يغلق الباب تمامًا، بل فتح الباب أمامهم، وذلك بتعلم العربية وإتقانها كأهلها، وبحكمة بالغة عاد –رحمه الله– فربط بين

العربية والنبوة "فالعربية لا يلم بها –كلها– إلا نبي وربط بينها وبين السنة: فحجية العربية حجية لا تنال بالكسب البشري –على أهمية الكسب وضرورته.

ولم يكن الطرف الآخر غافلًا عما يؤسس له هذا الإمام العبقري، فطرح قضية "خلق القرآن" ودعا الناس –كل الناس– للإيمان "بخلق القرآن" وقلل من شأن "الدليل اللفظي": فالدليل اللفظي ظنيّ عند هؤلاء حتى يبرأ يقينا من الاحتمالات العشرة؛ أما الدليل العقلي فيقتضي، ويمكن أن يقام عليه البرهان ساعة يشاء المستدل.

ودعوة "خلق القرآن" فرية كبرى سقط فيها المعتزلة، وأساءوا فيها إلى القرآن ثم إلى الأمة –كلها– إساءة بالغة، وكان الهدف منها خلع صفة الإطلاق عن القرآن، وإخراجه من عالم الأمر إلى عالم الأشياء النسبية المخلوقة، ثم فتح الأبواب على مصاريعها لمناقشة آياته ومحاكمتها إلى قواعد اللسان العربي وأحكامها –وكما تمخض عنها فكر العرب. والقول بالخلق يخرج القرآن عن كونه كلام الله وصفة من صفاته ذاته: فالقول بذلك –عند المأمون والمعتصم والواثق الذين امتحنوا أهل السنة بهذا القول بدءًا من عام (218هـ - 234هـ) إنهم بذلك يجردون المعارضة من أهم أسلحتها من القرآن الكريم. فإذا أضيف إلى ذلك ما سبق أن وصلوا إليه من تشكيك في حُجية السُنة –فذلك يعني أنّ "المرجعيّة" سوف تعود إلى العقل ويتجرد معسكر العرب وأهل السنة، وأهل الحديث من سائر مؤهلاتهم، ومكونات مرجعيّتهم.

ويذهب شيخ الإسلام ابن تيمية –طيب الله ثراه– إلى أبعد مما ذهب إليه الإمام الشافعي، فينتقل من تفضيل اللغة العربية أو اللسان العربي إلى تفضيل العرب الناطقين بها، ويستدل على ذلك بما يحسم مادة الجدل. فيقول "فإن الله خص العرب ولسانهم بأحكام تميزوا بها. ثم خص قريشًا على سائر العرب بم جعل فيهم من خلافة النبوة، وغير ذلك من الخصائص. ثم خص بني هاشم بتحريم الصدقة واستحقاق قسط من الفيء، إلى غير ذلك من الخصائص" ثم قال –رحمه الله–"فأعطى الله سبحانه كل درجة من الفضل بحسبها، والله عليم﴿ **اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ**﴾(**الحج:75**) و

﴿.. **اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ..**﴾ (**الأنعام:124**) ولقد قال الناس في قوله (تعالى) ﴿ **لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ..**﴾ (**التوبة:128**) وقوله (تعالى) ﴿ **وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ..**﴾ (**الزخرف:44**) أشياء ليس هذا موضعها، هذا كلام شيخ الإسلام"[4] . كما أورد بعد ذلك جملة من الأحاديث في ذات الاتجاه، ونص بعد ذلك على "أن بغض جنس العرب ومعاداتهم كفر وسبب للكفر"[5]

والذي ينبغي التوقف عنده أنه –رحمه الله– قد ذكر أن أسباب التفضيل العلم النافع والعمل الصالح فقال "والعلم له مبدأ وهو قوة العقل الذي هو الحفظ والفهم. وهو قوة المنطق الذي هو البيان والعبارة. والعرب هم أفهم من غيرهم، وأحفظ وأقدر على البيان والعبارة. ولسانهم أتم الألسنة بيانًا وتمييزًا للمعاني جمعا وفرقًا. يجمع المعاني الكثيرة في اللفظ القليل. إذا شاء المتكلم الجمع جمع ثم ميز بين كل شيئين متشبهين بلفظ آخر مميز مختصر. كما نجده في لغتهم من جنس الحيوان. فإنهم مثلا يعبرون عن القدر المشترك بين الحيوان بعبارات جامعة. ثم يميزون بين أنواعه في أسماء كل أمر من أموره: من الأصوات، والأولاد، والمساكن، والأظفار، إلى غير ذلك من خصائص اللسان العربي.

وأما العمل: فإن مبناه على الأخلاق. وهو الغرائز المخلوقة في النفس وغرائزهم أطوع للخير من غيرهم فهم أقرب للسخاء والحلم، والشجاعة والوفاء وغير ذلك من الأخلاق المحمودة، لكن كانوا قبل الإسلام طبيعة قابلة للخير معطلة غير فعله، ليس عندهم علم منزل من السماء، ولا شريعة موروثة عن نبي، ولا هم أيضًا مشتغلون ببعض العلوم العقلية" كالطب، والحساب ونحوهما، إنما علمهم ما سمحت به قرائحهم من الشعر والخطب وما حفظوه من أنسابهم وأيامهم، فلما بعث الله محمدًا –صلى الله عليه وآله وسلم– بالهدى الذي ما جعل الله في الأرض ولم يجعل أفضل منه قدرًا وتلقوه عنه بعد مجاهدته الشديدة لهم، فلما تلقوا عنه ذلك الهدى زالت تلك الريون عن قلوبهم، واستنارت بهدي الله، فأخذوا الكتاب الإلهي العظيم بتلك الفطرة الجيدة، فاجتمع لهم الكمال بالقوة المخلوقة فيهم،

---

[4] راجع "اقتضاء الصراط المستقيم" ص145.
[5] المرجع السابق، ص 256.

والكمال الذي أنزل إليهم بمنزلة أرض جيدة في نفسها لكنها معطلة عن الحرث، وصارت مأوى الخنازير والسباع، فإذا طهرت من المؤذي من الشجر والدواب، وجاء فيها من الحرث ما لا يوصف مثله، فصار السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار أفضل خلق الله بعد الأنبياء وصار أفضل الناس بعدهم من تبعهم بإحسان إلى يوم القيامة من العرب والعجم.

وأيضا فإن الله لما أنزل كتابه باللسان العربي وجعل رسوله مبلغًا عنه الكتاب والحكمة بلسان عربي، وجعل السابقين إلى هذا الدين متكلمين به: لم يكن من سبيل إلى ضبط الدين ومعرفته إلا بضبط هذا اللسان وصارت معرفته من الدين وصار اعتياد التكلم به أسهل على أهل الدين في معرفة دين الله، وأقرب إلى إقامة شعائر الدين.

ثم قال –رحمه الله– "واللسان تقارنه أمور أخرى: من العلوم، والأخلاق، فإن العادات لها تأثير عظيم فيما يحبه الله وفيما يكرهه، لهذا جاءت الشريعة بلزوم عادات السابقين في أقوالهم وأفعالهم، وكراهة الخروج عنها إلى غيرها من غير حاجة. فحاصله: أن النهي عن التشبه بهم: إنما كان لما يفضي إليه من فوت الفضائل التي جعلها الله للسابقين الأولين، أو حصول النقائص التي كانت في غيرهم".

فلغة القرآن الكريم عربية ولا شك، لكن عربية القرآن ليست كأية عربية أخرى لا من حيث المستوى ولا الأسلوب ولا النظم، ولا المحتوى والمضمون، ولا المعاني التي اشتملت عليها لغة القرآن. ومن التساهل الشديد أن يُقال: بأن عربية القرآن كأية عربية أخرى. أن ذلك التصور الخاطئ أوقعنا في كثير من اللبس والخطأ من ذلك أن علينا أن نأخذ القرآن الكريم بحسب مفاهيم العرب، وبحسب ما ورد في لغتهم. بحيث أصبح البدوي –كما يقول بعض الباحثين– هو الحكم في فهم معاني القرآن الكريم أو بنوا إسرائيل فيما شابهت موضوعاتهم موضوعات التوراة والإنجيل، ويقول الأصمعي: "ما كنت أفهم معنى الدهاق حتى ذهبت إلى قبيلة من قبائل العرب، فسمعت جارية تقول لأمها يا أماه اسقني دهاقًا، فعرفت أنها تريده كأسًا مملوءًا". والإمام الشافعي –رحمه الله– له كلام جيد في هذا المجال، حاول أن يشير فيه إلى أن القرآن العظيم وإن كان عربي اللغة، لكن لغته هذه لغة متميزة بكل معاني

التميز، وبكل معاني الامتياز، ونفى ما وقع فيه كثير من العلماء حين زعموا أنّ في القرآن ألفاظًا غير عربية، نتيجة ذلك الوهم بأنّ القرآن نازل بلغة العرب، ويحمل على مفاهيمهم هم، وبالتالي فمادامت الكلمة لم ترد في لهجات قبائلهم أو لم ترو عنهم، فإنها لا بد أن تكون أعجمية، يقول –رضي الله عنه–: "ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبًا وأكثرها ألفاظًا، ولا نعلم أحدا من البشر يحيط بجميع علمه غير نبي، ولكنه لا يذهب منه شيء على عامتها (أي جملة العرب كلها) حتى لا يكون موجودًا فيها من يعرفه، والعلم به (اللسان) عند العرب كالعلم بالسنة عند أهل الفقه، لا نعلم رجلًا جمع السنن فلم يذهب منها عليه شيء، فإذا جُمع علم عامة أهل العلم بها أتى على السنن، وإذا فرق علم كل واحد منهم ذهب عليه الشيء منها، ثم كان ما ذهب عليه منها موجودًا عند غيره. وعلم أكثر اللسان في أكثر العرب أعم من علم أكثر السنن في العلماء. ثم يقول: "فإن قال قائل ما الحجة في أن كتاب الله محض بلسان العرب لا يخلطه فيه غيره، قلنا: الحجة فيه كتاب الله. قال الله﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ..**﴾ (**إبراهيم:4**)، فإن قال قائل: فإن الرسل قبل محمد كانوا يرسلون إلى قومهم خاصة، وأن محمدًا بعث إلى الناس كافة، فقد يحتمل أن يكون بُعث بلسان قومه خاصة، ويكون على الناس كافة أن يتعلموا لسانه أو ما طاقوا منه، ويحتمل أن يكون بُعث بألسنتهم، فهل من دليل على أن بُعث بلسان قومه خاصة دون ألسنة العجم، قلنا فإذا كانت الألسنة مختلفة بما لا يفهمه بعضهم عن بعض، فلابد أن يكون بعضهم تبعًا لبعض، وأن يكون الفضل في اللسان المتبع على التابع وقد بين الله ذلك في كتابه قائلا ﴿ **وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ* عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ**﴾ (**الشعراء 194:192**) وقال (تعالى) ﴿ **وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا..**﴾ (**الرعد:37**) وقال (تعالى): ﴿ **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا..**﴾ (**الشورى:7**) ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ (**الزخرف:3**) ﴿ **قُرآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾ (**الزمر:28**)، فأقام حجته بأن كتابه عربي في كل آية ذكرناها، ثم أكد ذلك بأن نفى عنه (جلّ شأنه) كل لسان غير لسان العرب في آيتين من

كتابه فقال (تعالى) ﴿ **وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ**﴾ (**النحل:103**) وقال (تعالى) ﴿ **وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء..**﴾ (**فصلت:44**). ويستمر الإمام الشافعي ليقول "فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده، حتى يشهد به أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، ويتلو به كتاب الله، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير وأمر به من التسبيح، وما ازداد من العلم باللسان الذي جعله الله لسان من ختم به نبوته وأنزل به آخر كتبه كان خيرًا له، كما عليه أن يتعلم الصلاة والذكر فيها .. الخ".

لكن ما لابد من فهمه هنا هو المرجع لفهم القرآن الكريم، هل تكون لغة البداوة؟ يروي ابن جني في خصائصه عن عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– قوله: "عليكم بالشعر ديوان الجاهلية فإنّ فيه معاني كتاب الله أو نحو ذلك" أو "عليكم بديوانكم شعر الجاهلية فإنكم تجدون فيه معاني كتاب الله (جلّ شأنه) وكل من له أدنى إلمام بقضايا اللغة يعرف أن اللغة تعبير عن أفكار، وأن البدوي في جاهليته لا يمكن أن تكون لديه كل هذه الأفكار التي عبر القرآن عنها، فالقرآن العظيم كان يحمل قضايا لم تكن ﴿.. **مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ..**﴾ (**هود:49**) "فإن فكرة الوسيط اللغوي هنا في حمل هذه المعاني فكرة تحتاج منا إلى كثير من البحث، وتحتاج منا إلى كثير من التدقيق ولا ينبغي لنا أن نلقي الكلام على عواهنه ونقول: يفسر القرآن الكريم بلغة العرب أو لغة الجاهلية أو ديوان الجاهلية، لا بد أن ندرك هذا الفارق، وكيف نتغلب عليه؟

نتغلب عليه حين نتذكر أن رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– أرشدنا إلى القرآن نفسه، حيث يفسر القرآن بعضه بعضا، والأصوليون ذكروا كلامًا كثيرًا جدًا في مباحث اللغات في أصول الفقه حول هذه القضايا، كلمة "الصلاة" في اللغة العربية لا تعني أكثر من الدعاء، قال الأعشى: وصلى على دنها وارتسم، وأقوالهم في هذا أن الصلاة ليست أكثر من دعاء، ولكن الصلاة التي أمرنا بها "إقامة الصلاة" أقوال وأفعال ودعاء، وحركات مفتتحة

بتكبير مختتمة بتسليم ولها هيئة، فاضطر الأصوليون أن يقولوا حتى يأتون إلى هذا، كلمة الصلاة لغة هي الدعاء اصطلاحا ومجازًا هي أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم، فأدخلوا المجاز كوسيط، وبعضهم قال لا، هي حقيقة لغوية نقلها الشارع من اللغة إلى الشريعة لتصبح حقيقة شرعية، فهي في اللغة في الصلاة بمعنى الدعاء، وفي الاصطلاح الشرعي هي حقيقة في أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم.

وكذلك الإيمان غيره حقيقة في التصديق في اللغة، ونقلته الشريعة إلى إيمان بأركان العقيدة التي هي مجمل الإيمان، وكذلك الحال بالنسبة لسواها من مفاهيم، هل هذا هو الحل؟ قد يساعد على تصور الفرق بين لغة القرآن وغيرها، وأنه لابد لنا من أن نلحظ ونرى بأن للقرآن لغته، أي عندما قيل :"إن أعلاه لمورق وإن أدناه لمغدق، إنه ليس بشعر وإنه ليس بنثر" إنّه قرآن! أي لغة خاصة.

وأهم مصدر لفهم لغة القرآن ذاته، فإذا أدركنا هذه المؤشرات، أدركنا أن هذا الخطاب القرآني هو خطاب خاص له لغته الخاصة، وله نبضه، وأسلوبه في التعبير، وإعجازه، نزل بلسان العرب تيسيرًا من الله (جل شأنه)﴿ **فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا**﴾(**مريم:97**)،﴿ **فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾ (**الدخان:58**)، فكأنه (جلّ شأنه)قد اختار هذه اللغة لينزل بها كلامه وأعطاها صفات معينة لتحتمل هذا، وقد وصف الله (جلّ شأنه) هذا الخطاب بقوله: ﴿ **إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا**﴾ (**المزمل:5**) فهذا القول ثقيل في خصائصه وفي صفاته، ومزاياه، الله (جلّ شأنه) منح هذه اللغة ما منحها من سعة وطاقة من أجل أن تحتمله، من أجل أن تتسع له، وأعد رسوله إعدادًا خاصًا وصنعه على عينه ليتمكن من حسن تلقيه، ولكن تبقى الهيمنة للقرآن باستمرار على اللغة. من هنا، حينما يأتي من يقول بأنه ليس للناس أن يفهموا من هذا القرآن شيئا، لم تفهمه العرب في دائرة لغتها اللفظية ولسانها، فلابد من أن يُراجع ويُضبط مثل هذا القول فهو صحيح إلى حد ما، لكن الأصح أن للقرآن لغة تخصه، تدخل في إطار اللغة العربية بالمعنى العام وتتميز عليها بالتحدي والإعجاز وتجاوز سائر مستويات البلاغة والفصاحة،

وتبقى لها دوائرها القرآنية، فهي معجزة واللغة العربية غير معجزة، هي متحدى بها واللغة العربية غير متحدى بها، هي كلمات تكاد تكون بمثابة المفاهيم والمصطلحات من حيث المعاني التي أدرجت فيها من العليم الخبير، ولغة العرب ليست كذلك، هذه نقطة لا بد أن يفهمها المتعامل مع القرآن الكريم، ويؤمن بها، فليس بكاف للباحث أن يتقن لغة العرب، بل لا بد أن يمهر في لغة القرآن، وأساليبه ونظمه.

ولذلك يجب على الباحثين في العلوم الاجتماعية والراغبين في التعامل مع القرآن الكريم أن يدركوا أنّ أول مصدر يمكنهم البحث فيه عن معاني القرآن هو القرآن ذاته، وبدلا من أن يطير الباحث إلى القاموس محاولا فهم كلمة معينة فإنه يلزمه مراجعة هذه الكلمة في القرآن ذاته، هل وردت هذه الكلمة في مواقع أخرى في القرآن الكريم؟ وإذا كانت قد وردت؟ ففي أي سياق قد وردت؟ إن هذا يقدم للباحث المتعامل مع القرآن خدمة كبيرة جدًا، لا يدركها إلا من تذوقها، وتذوق المعاناة وهو يبحث في شعر العرب وأدبهم ونثرهم للكشف عن معنى من معاني القرآن الكريم، فلغته عربية ولكنها متميزة عن اللغة العادية بمزايا كثيرة جدًا، ليس الميدان ميدان درس في الإعجاز اللغوي، ولا في بيان اللفظ والأسلوب وبلاغة القرآن الكريم، ولكن هي مجرد إشارة إلى هذا الجانب باعتباره محددًا من محددات منهجية التعامل مع القرآن الكريم.

ثانيًا: الإيمان بوحدة القرآن البنائية:[6]

ليس هناك أي خطاب عربي سواء أكان في مستوى قصيدة شعرية، مثل معلقة من المعلقات السبع أو العشر أو أي نص آخر، يمكن أن نجد فيه "وحدة بنائية" بحيث نستطيع أن نرد أوله لآخره وآخره لأوله مثل القرآن المجيد، فالقرآن —وحده– النص الذي يمكن أن نلمس فيه —بوضوح وحدته وتماسكه حتى ليبدو كأنه جملة واحدة، أو أية واحدة وإن تعددت أجزاؤه وأحزابه وسوره وآياته، دون أن نشعر بأن هناك شيئًا له موضوع يخصه أو يمكن أن ينفرد به. تعني الوحدة البنائية أن ننظر إلى القرآن الكريم على أنّه بناء واحد

[6] لقد اعددنا بفضل الله- دراستين نشرتا في سلسلة "دراسات قرآنية" هما:

متماسك، وجسم واحد، والله (جلّ شأنه) قد نفى عن القرآن الكريم التجزئة وسخر من أولئك الذين كانوا يقرؤون القرآن عضين، وقال:﴿ **الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ**﴾(**الحجر:91**) "عضين" فُسرت بأنها أعضاء مجزأة، يقول ابن كثير وغيره من المفسرين: إنّهم الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض فكأنهم جعلوه أعضاء وأجزاء يختارون من بينها ما يؤمنون به وما يكفرون به، والحقيقة أنّ الآية الكريمة لا تقصر المعنى على هذا، ولنا أن نفهم أن أولئك الذين يحاولون أيضًا أن يتخذوه شواهد على معين ويقصرون دلالته كأنّهم عضّوا القرآن أي جعلوه أعضاء وأجزاء متناثرة، يأخذون بعضه ليعززوا ما يذهبون إليه، ويتركون البعض الآخر.

وتظهر هذه "الوحدة البنائية" على مستوى السورة، فالسورة الواحدة من القرآن تشكل بناءًا واحدًا وللسورة عمود أساسي حين تكتشفه تستطيع أن تكشف عن جوانب السورة كلها وتتفهم موضوعاتها الأساسية ومحاورها الكبرى، التي دارت حولها، والوحدة البنائية على مستوى القرآن كله. تبدو مثل وحدة الكون الواحد الذي وإن تنوع إلى سماوات وأرضين ومخلوقات متنوعة غير أنه واحد في غايته وسنن وقوانينه ووجهته وكليّته ومخلوقيته لله (تعالى) وخضوعه وسجوده له. "الوحدة البنائية" تظهر إذن على مستوى السورة، وهناك على مستوى "الآية" وعلى مستوى القرآن كله. أذكر أنّ أبا علي الفارسي –وهو إمام معروف في القراءات والنحو واللغة –نقل عنه ابن هشام في مغني اللبيب في حديثه عن "لا" النافية للجنس أنه رد على بعض المفسرين الذين ادعوا أن هناك آية كريمة ذكر فيها مبتدأ ولم يرد الخبر، فيرد أبو علي الفارسي على ذلك العالم، ويقول له: الخبر ورد في مكان آخر، وبعدت الشقة بينك وبينه فلم تره، ألا تدري أن القرآن جسم واحد أو عضو واحد، فكان عليك من أجل أن تصل إليه أن تقرأ السورة والسورة الأخرى فذلك جزء من إعجاز القرآن الكريم، ومظهر من مظاهر ذلك الإعجاز أن يكون القرآن وكأنه كلمة واحدة.

"الوحدة البنائية" تشير إلى القرآن الكريم على أنّه بناء واحد كالكون، وأن هناك علاقات رابطة بين أحرفه داخل الكلمة وبين كلماته داخل الآية وبين آياته داخل السورة، وبين سوره

داخل ما بين الدفتين، وهذا المحدد المنهاجي له آثار كبيرة جدًا في إعادة بناء الدراسات الاجتماعية والإنسانية.

ولا نجد في تراثنا كثيرًا من الحديث عن هذه الوحدة، وإن وجدناها عند ابن هشام وعند أبي علي الفارسي، وربما وجدنا إشارة إليها عند المحاسبي في معرض كلامه عن معادلة القرآن للكون، ولكن لا نجد الأمر شائعًا، إلا عند أصوليين مثل الإمام الشافعي، فنجد عندهم كلاما عن هذه الوحدة في دائرة الأحكام، ولكنها أيضا ليست وحدة بنائية أو عضوية وإنما باعتبارها وحدة موضوعية –وفرق بين الوحدة الموضوعية والوحدة البنائية.

إذا أدرك عالم الاجتماعيات أنّ القرآن الكريم يمثل هذه الوحدة يدرك –آنذاك–أن عليه أن يتعامل معه على هذا الأساس، وأنه لن يكون قادرًا على بناء نظريات اجتماعية وإنسانية من قراءة آيات مخصوصة، يصل إليها بطريق الفهرسة الحديثة أو بطريق التكشيف أو برؤوس الموضوعات الأصلية أو الفرعية، لا، فالأمر مختلف فأنت لا تتعامل مع كتاب عادي، بل تتعامل مع كتاب كونيّ. الإمام الشافعي –رحمه الله– حين طولب بدليل على الإجماع، قال "قرأت القرآن ثلاث مرات، من أوله إلى آخره بحثا عن دليل يدل على حجية الإجماع قرأته للمرة الأولى فلم أعثر على شيء ثم قرأته الثانية والثالثة فوجدت قول الله (تعالى) ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا**﴾ (**النساء:115**) فقلت من يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين، الإجماع إذًا سبيل المؤمنين، ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى والله لا يتوعد إلا على شيء كبير عظيم هو من الواجبات أو من الأركان أو من الفرائض، واستدل به على الإجماع. ورد عليه كثيرون وهذا ليس موضع بحثنا، ولكن الإمام الشافعي أدرك أن عليه أن يحاول النظر في القرآن كله، ويحاول أن يضع منهجا لكي يستطيع أن يبحث في القرآن، فلو ذهب الإمام الشافعي وأمسك بالقرآن الكريم بحثًا عن كلمة الإجماع. أو اتفاق المجتهدين، أو تحت رأس أي موضوع، فإنه لن يجد شيئًا. ولو جئنا إلى علماء المكتبات وقلنا لهم: أخرجوا لنا في قضية حجية الإجماع رأس الموضوع الأصلي ورأس

الموضوع الفرعي وأعطونا إياها فلن نجد شيئا، ولكن الشافعي أدرك أنّ في القرآن الكريم وحدة بنائية فذهب يقرأه كله، فوجد هذا في آية إخبارية وأية وعيد وليس بآية أمر أو نهي، وليست بآية تنص على أنه دليل أو ليس بدليل، فإذا عالم الاجتماعيات عليه أن يجعل جزءًا من منهجه ينبغي أن يكون هذا القرآن الكريم كله بين يديه باستمرار وأن يكون دائم القراءة له. فقد تقرأ القرآن مثل ما فعل الإمام الشافعي مرتين وثلاثًا وقد تعثر على شيء، وقد تتجاوز هذا فلا تعثر على شيء، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، القرآن كريم معطاء، ولن يقصده أحد إلا وينال شيئًا، لكن ليس بالضرورة أن ينال كل ما يريد، وقد ينال شيئا آخر، فكثير ما نبحث عن شيء فتتحقق لنا فائدة لم تكن مقصودة لنا ابتداءً.

ثالثا: الجمع بين القراءتين: وقد أعددنا فيها رسالة خاصة طبعت ونشرت بهذا الاسم فلا يغير شيئا منها هنا.

رابعا: القراءة المفاهيمية للقرآن:

كيف ذلك؟ لو نظرنا في مفردات القرآن للراغب الأصفهاني. وهو من أكابر علمائنا – رحمه الله–، لم يؤلف كثيرًا، له كتاب: "المفردات"، وكتاب "الذريعة إلى مكارم الشريعة" وهو رجل ذو ذوق عال، فكتابه في مفردات القرآن الكريم حاول أن يجعله مقدمة لتفسير اعتزم تأليفه فبناه على أساس المفردة القرآنية وما يدور حولها يستنبط منها مصطلحا، وعلى مستوى المصطلح، ربما كان هذا في عصره كافيًا، أما اليوم فأننا نحتاج إلى مذهب أبعد .....

خامسا: مناهج المفسرين:

هناك أنواع من التفسير، فكيف سيتعامل معها عالم الاجتماعيات؟ هناك في التفسير الموروث، التفسير الآثاري (التفسير بالأثر) مثل تفسير الطبري، وابن كثير، والدر المنثور للسيوطي، ونحوها، ومن التفسير العقلي تفسير الفخر الرازي، ومن الإشاري الفتوحات المكية لابن العربي، ومن البلاغي الكشّاف للزمخشري ... إلخ، فبأيها يأخذ عالم الاجتماعيات المعاصر؟ يمكنه الاستفادة منها جميعًا، دون أن يجعل أحدها مرجعه الأخير. ويحتاج عالم

الاجتماعيات وهو يتعامل مع التفسير إلى وسيلتين؛ الوسيلة الأولى: أن يتعلم ما يمكن تسميته بالتفسير التحليليّ، الذي يعتمد على قراءة القرآن كله عدة مرات ثم جمع ما يرى له علاقة فيما هو يبحث عن معالجتهن ثم بعد ذلك يقوم بإعادة الترتيب كما يفعل الأصوليون، ثم يقوم بتحليل عناصر ما ورد، لكي يأخذ صورة كلية، ثم يحاول أن يأخذ الجزئيّة التي يبحث عنها إلى ذلك الكلي الذي توصل إليه.

أما الوسيلة الثانية فهي ما نسميه الآن بالتفسير الموضوعي، فهو أقرب إلى عالم الاجتماعيات من جميع أنواع التفسير الأخرى، فالموضوعي مع التحليلي كلاهما لا يمكن للباحث في العلوم الاجتماعية الاستغناء عنهما، لكنه لو حصر نفسه ودراسته في التفسير الإشاري أو البلاغي أو العقلي أو الآثاري، فقد لا يصل إلى مبتغاه.

وفي جميع الحالات يلزم عالم الاجتماعيات وهو يقرأ القرآن أن يحدد ما الذي يريده، ما المشكلة التي يبحث لها عن حل؟ وما السؤال الذي يبحث له عن إجابة؟ أما الذي يقرأ القرآن دون مشكلة، ودون سؤال، فإنه لا يبتغى حلًا أو جوابًا فقراءة القرآن للعبادة تختلف عن قراءة عالم يريد بناء نظرية معرفية.

المحددات المنهاجية للتعامل مع القرآن:

هل الأولى أن نسمي القرآن نصًا، أو شيئًا آخر؟ لكثرة ما دارت كلمة "النص"[7] خاصة في عصورنا المتأخرة على الألسن أجد أن لفظ "خطاب" أقرب منها إلى حقيقة القرآن الكريم. كما أن لفظة "خطاب" هي اللفظة التي استعملها أسلافنا، وخاصة الأصوليون والمتكلمون منهم، فقالوا في تعريف الحكم الشرعي؛ "خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين بالاقتضاء أو التخيير "عرّف الأصوليون القرآن العظيم بأنه: "كتاب الله المنزل على محمد بن عبد الله –صلى الله عليه وآله وسلم– المتعبد بتلاوته، المتحدي بأقصر سورة منه، المعجز الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، أو بمثل بعضه لا يأتون بمثله، ولو كان

[7] تفضل د/ منى استعمال "خطاب" على استعمال "نص" وللاطلاع على مسوغاتها لذلك الاختيار وعلى مفهوم "النص"، راجع كتابنا المشترك "نحو إعادة بناء علوم الأمة الاجتماعية والشرعيّة: مراجعات منهاجية وتاريخية".

بعضهم لبعض ظهيرًا، المفتتح بسورة الفاتحة، المختتم بسورة الناس، المعصوم بقدرة الله من كل تغيير أو تبديل أو تحريف إلى يوم القيامة ﴿ **لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾ (**فصلت:42**) وحين نحاول النظر في هذا التعريف وفي تعاريف أخرى، نجد أنها حاولت أن تشتمل على أهم خصائص القرآن الكريم، لكنها لم تستوعب هذه الخصائص، فهناك خصائص كثيرة يمكن أن تندرج تحت مفهوم الإعجاز، فلكي يكون الخطاب معجزًا، لابد أن تكون له خصائص عديدة؛ ولكي يكون الخطاب قادرًا على تحدي البشر في سائر عصورهم وأزمنتهم حتى يوم الدين، لا بد أن يكون له خصائص معينة كذلك؛ ولكي يستطيع هذا الخطاب أن يستوعب الأنساق الحضارية والثقافية على اختلافها ويتجاوزها، لا بد أن تكون له خصائص أخرى كثيرة؛ ولذلك فقد يكون من أفضل ما وصف به هذا القرآن الكريم بعد وصف الله له، ما ورد في حديث الترمذي عن علي –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– ستكون فتن، قلنا ما المخرج منها يا رسول الله؟ وفي لفظ آخر: أن الأعور وهو من أصحاب عليّ جاءه، وقال: يا أمير المؤمنين لقد تركت الناس يختلفون حول هذه الأحاديث في المسجد، يضرب بعضهم الآخر بما يرويه من حديث، فقال له علي: أو قد فعلوها؟ أما والله لقد سمعت رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– يقول ستكون فتنة الأحاديث. قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله، فيه نبأ من قبلكم، وخبر من بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى بغيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، والنور المبين والصراط المستقيم، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله. أو كما قال عليه الصلاة والسلام.[8]

إن الإحاطة بخصائص القرآن الكريم وصفاته كالإحاطة بعلمه، أمر لا يمكن أن يكون في مقدار النسبيّ، والبشر نسبيّ، واستيعاب النسبيّ للمطلق استيعابا مطلقًا أمر غير وارد، ولكن

[8] يراجع ما قيل في هذا الحديث من أعمالنا في الدراسات القرآنية.

هو كنهر يشرب الناس من قدر طاقتهم، وقد حاجتهم، ويستمر في جريانه وخلوده حتى الأجل الذي أجل الله (جلّ شأنه) له.

يمكن أن نقول إنّ هناك مبادئ عامة للقرآن الكريم. هذه المبادئ العامة أو الكلية يمكن أن نجد في بعضها ما يمكن اعتباره حلقات إذا ضم بعضها إلى بعض تشكل منهجًا، منهجًا في الفهم، ومنهجًا في التعامل مع القرآن الكريم، خاصة ونحن نريد أن نتعامل مع القرآن الكريم باعتباره مصدرًا للدراسة كل ما نحن بحاجة إليه، والاهتداء به في سائر شؤوننا ومعارفنا وعدم قصر مصدريّته على الأحكام الفقهية أو الشرعية، ولكننا نريد مد ذلك إلى سائر ما نحتاج إليه من معرفة اجتماعية وإنسانية ونحوها.

خاصية التصديق:

وفي هذا الإطار نلاحظ أن بعض صفات القرآن الكريم جرى تناولها في معرض معرفي واضح، فالقرآن الكريم وصف بأنه مصدّق لما بين يديه، والتصديق هنا مدخل معرفي؛ لأنّه يشير إلى عملية معرفية تقوم على استرجاع تراث النبوات كلّها، ومحاولة مراجعة ذلك التراث ونقده وغربلته، وتصفيته من كل ما علق به وإعادة تقديمه بشكل سليم. قال الله (جلّ شأنّه) ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ..**﴾ (**المائدة:48**) وقد استرجع القرآن الكريم الكتب السابقة من توراة وإنجيل وصحف وزبور ونحوها، ونقدها وبيّن الزيف الذي فيها، وبيّن كل ما لحق بها من افتراء أو تحريف أو تغيّر، ثم أعاد تقديمه بشكل صادق. فإذا أردت أن تعثر على أصدق مصدر لقضايا بني إسرائيل فلا تجد غير القرآن الكريم. وإذا أردت أن تبحث عن أصدق مصدر لقضية التكوين وخلق آدم وبدء الخلق لا تجد غير القرآن الكريم. أما تراث النبوات الأخرى فقد بيّن لنا القرآن كيف زُيِّف؟ وكيف حُرِّف ثم أعاد ذكر ما وجد أنّه لا بد من أن يصحح، أعاد ذكره خالصًا مصححًا. فالتصديق هنا مدخل معرفي ومنهجي يوضح القرآن فيه أنّه قام بعملية استرجاع لذلك التراث، وتصفية وغربلة ونقد، حتى أعاد ذكره صادقًا ومصدقًا لنا.

إطلاقيّة القرآن الكريم:

هنا أود أن أنبه إلى أن شيخ الإسلام ابن تيمية قد ذم قومًا يقولون: بأن القرآن المجيد مطلق أو أن الله (جلّ شأنه) مطلق، وتكلم عن كلمة الإطلاق ومصطلح الإطلاق، واعتبره مصطلحًا فلسفيًا لا يليق أن يُنسب إلى الله (جلّ شأنّه) ولا يُنسب إلى صفات ذاته الكريمة. ونحن معه في هذا، ولكننا لا نعني "بالإطلاق" مفهوم الفلاسفة، وإنّما نعني ذلك الذي عناه الأئمة حين قالوا: "إن القرآن الكريم قديم غير مخلوق. فتنة خلق القرآن الكريم وما دار حولها جرت بين المعتزلة وأهل السنة والحديث، كان لها آثارًا فكريّة خطيرة جدًا في تاريخنا، لا تزال بعض آثارها قائمة في هذا التراث، حين تُسترجع بين حين وآخر. نعني بالإطلاق هنا القدم؛ فكتاب الله غير مخلوق، لم يسبق بعدم وباق مستمر لن يزول حتى يأذن الله (جلّ شأنه) بذلك فهو كلام الله وصفة من صفات ذاته الكليَّة. والإطلاق هنا يقابل النسبيّة، ونريد بالنسبيّة هنا ذلك الذي أرادوه بالحدوث، أو المحدودية، أو كون الشيء مسبوقًا بالعدم، آيلا إلى الفناء والزوال. فالقرآن الكريم معصوم من ذلك كله. إنّ اتصاف القرآن –وحده– بصفة الإطلاق يتوقف عليه محدد آخر، ألا وهو كون القرآن الكريم قادرًا على الاستيعاب والتجاوز، استيعاب الأنساق الحضاريّة والثقافية وتجاوزها.

وهنا أود أن أنبه إلى ما يعرف في أيامنا هذه (بجدلية النص والواقع)[9] هذه الجدليّة وهذه القضية لا بد من استحضارها عندما نأتي لبحث العلاقة بين "النص والواقع" وتعامل الإنسان الذي يعيش واقعًا معينًا مع النص وكيفية فهمه، وكيف يُستدرج الإنسان لكثير من التأويلات ونحوها؛ فالعلاقة بين "المطلق المستوعب المتجاوز" كالقرآن الكريم، والإنسان النسبي المحدود في زمانه ومكانه، ليست بالأمر الهين، فإذا لم يكن هناك وعي كامل بمحدودية الإنسان ونسبيّته من جهة، وإطلاقيّة القرآن الكريم من جهة أخرى، فقد يقع الإنسان في كثير من الأخطاء، وكثير من الانحرافات في الفهم، وكثير من التأويلات، وإذا عدنا إلى المناظرات التي كانت تقوم حول "خلق القرآن" – "قِدم القرآن أو حدوثه و خلقه" –نجد أنّ لها علاقة

[9] راجع دراسة "جدلية النص والواقع" في كتابنا المشترك د/منى والمؤلف: "نحو إعادة بناء علوم الأمة الاجتماعية والشرعية" مصدر سابق.

وشبهًا كبيرًا فيما يدور الآن من جدل حول "جدليّة النص والواقع". بعض الناس ظنُّوا أنّ مجرّد نزول القرآن الكريم بلغة العرب يجعله يحمل كل خصائص تلك اللغة، كما هو الحال في شعرهم ونثرهم، دون ملاحظة أيّ امتياز لذلك، فوقعوا بالقول "بالخلق" حتى ولو لم يصرحوا به، أو صرحوا "بالقدم"؛ ذلك لأنهم والحالة هذه من الصعب جدًا أن يصلوا إلى تصور عملية "الإطلاق" والاستمرار وهيمنة القرآن الكريم على ما يأتي بعده كهيمنته على ما جاء قبله.

من أجل هذا الأمر بالذات جاء تأكيد أئمة "أهل السُنّة والجماعة" وجاء موقفهم تجاه هذا الأمر، وعلى الأخص أحمد بن حنبل –يرحمه الله– الذي وقف الموقف الإيماني المشرّف، وظل يؤكد على القول "بقدم القرآن وأنه غير مخلوق"؛ لكي لا يمس القرآن الكريم من هذه الزاوية، وضُرب –رحمه الله– وجُلد وسُجن حتى كاد يُشل، لمجرد أن يقول بدعة القول "بخلق القرآن"، لكنه كان يرفض التساهل في ذلك خشية أن يُفتن المسلمون. وهناك كثير من العلماء تساهلوا وقالوا بمثل ما قال المعتزلة متأولين أو معتذرين، لكن الإمام أحمد أصر على ألا يقول شيئًا من ذلك، وأصر على تأكيد قدم القرآن لتأكيد إطلاقيته.

هنا تصبح صفة "الإطلاق" مفهومًا معرفيًا بحاجة إلى استحضار دائم في العقول والأذهان، وفي مجالات البحث والمعرفة، وعندما نتعامل مع القرآن يجب أن تكون هذه الصفة حاضرة تماما في أذهاننا. وإلا سنقع في إمكان القول بالنسخ، والتشابه بالتعارض، وإمكان وقوع كثير من الأمور التي يجب أن ننزه القرآن عنها.

إن اتصال القرآن الكريم باللغة العربية واتخاذه لها وعاءًا لمعانيه وتعابيره، لا يعني أنّه قد فقد خصائص إطلاقيته، وأخذ منها خصائص نسبيّتها. بل يعني ما أشار إليه الله (سبحانه وتعالى) في قوله ﴿ **فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾(**الدخان:58**) من أمر التيسير. بمعنى أنّ ثمة عملية إلهية غيبية جرت في هذا الأمر؛ لتجعل من هذه اللغة لغة قادرة على استيعاب هذا القول الثقيل﴿ **إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا**﴾(**المزمل:5**)، فمجرد أن الله (سبحانه وتعالى) يسر القرآن؛ لأن يكون بهذه اللغة جريا على سنته ﴿.. **مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**..﴾ (**إبراهيم:4**)، فإن هذا بحد ذاته يعتبر إعجازًا من الإعجاز،

فاللغة العربية لا تستطيع هنا أن تستوعب معاني الكتب بحيث تفقده صفة الإطلاق وتخص فهمه وفهم آياته بعصر دون عصره، فله معانٍ متجددة؛ أرأيت إلى النهر الجاري فإنّ مياهه تتجدد مع جيرانه مرة بعد أخرى، منبعه متصل لا ينقطع، ونهايته غير محدودة أو معروفة، ولله المثل الأعلى في القرآن الكريم.

على ضوء "خاصية الإطلاق" في القرآن، فليس لنا أن نحوله إلى مجرد مادة لغوية عاديّة نجري التعامل بها مرة مفككة، ومرة مصمتة، فالقرآن قد هيمن على لغة العرب وسخّرها للتعبير عن معانيه؟ والجواب في الحقيقة أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضًا، وأهم مفسّر للقرآن هو القرآن ذاته، وبعد ذلك يأتي بيان رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– وتأويلاته، وتفعيله في الواقع.

خاصية الاستيعاب:

من خلال "الإطلاق والتصديق"، أي من خلال كون القرآن أيضا "نصًّا مطلقًا" وكونه مصدقًا لما بين يديه، نستطيع أن ننطلق نحو "خاصية الاستيعاب القرآني"، لكي نحمل القرآن العظيم خطابًا عالميًا إلى الناس كافة، ولا يصبح خطابًا مختصًا بقوم أو زمان، لا بد أن تكون فيه صفة "الاستيعاب والقدرة على الاستيعاب" الاستيعاب لأيّ نسق حضاريّ، استيعابه وترقيته وتجاوزه وعدم الركود فيه أو التحول إلى شيء مرتبط به لا ينفك عنه. والذين يظنون أن القرآن الكريم قد جرى استيعاب معانيه ودلالاته وجرى بناء واقع معين به وفقًا لهذه المعاني والدلالات، وفرغ من ذلك، وعلى سائر من يأتي من الناس والأجيال والأمم بعد ذلك أن يأخذ بنفس الشكل أو بنفس الأشكال، ويمارس الحياة في دائرة ذات الفقه الذي أنتج في فترة معينة، إن فهم هؤلاء لطبيعة "الخطاب العالمي" يحتاج إلى مراجعة، والذين يظنون أنّ القرآن الكريم كان مصدقًا فقط لما سبقه، وليس مصدقًا لما لحقه من تراث الإسلام ينبغي أن يعود إليه، وأن يحاكم إليه فترة بعد فترة، فإن فهمهم يحتاج إلى مراجعة.

حين نستعرض تطورات العقل الإنساني وبلوغه مستوى المنهجية، نستطيع القول إنّ القرآن قادر على استيعاب ذلك، قضية الاستيعاب لهذه الأنساق للحضارة القائمة بما هي قائمة عليه قضية من الصعب فهمها، إلا إذا أدركنا مفهوم "عالمية الخطاب"، وصفة الإطلاق، وصفة التصديق والقدرة التي أودعها الله (جلّ شأنه) في هذا الكتاب على الاستيعاب والتجاوز.

إن فقهنا وتراثنا كله قد تشكل في إطار "الخطاب القرآني"، وقد عالجت أمتنا في فتراتها المختلفة، خاصة في عصر النبوة، وفي فترة القرون الثلاثة الأخيرة والصدر الأول كله، كل ما اعترضها وكل ما صادفها من مشكلات، وتركت تراثًا ضخمًا في سائر المجالات. وقد استوعب القرآن الكريم كل ذلك، وهو الذي وجه الناس إليه، ولكنه تجاوزه.

فهل لنا اليوم في ظل موروثنا هذا أن نستجيب لمتطلبات حياتنا، مهتدين بهدي القرآن؟ أم ليس لنا ذلك؟

يقول بعض أئمتنا: "ما ترك السابق للاحق شيئًا"، أو "ما ترك السالف للخالف شيئًا".

هل هذه المقولة صحيحة؟ الجواب لا. لقد ترك له الكثير؛ لأنّ الناس تعاملوا مع القرآن في سائر عصورهم على مستوى عصورهم، وعلى مستوى مشكلاتهم، واستجاب القرآن بعطائه وبكرمه لذلك، وأعطاهم من الحلول ما كانوا بحاجة إليه. إذا اعتبرت أنّ تراثنا الذي وصل إليه آباؤنا هو المعنى الوحيد، أو النموذج الوحيد، أو التطبيق الوحيد ، أو التجسيد الوحيد لمعاني القرآن الكريم، وأنّ علينا أن نعيد إنتاج ذلك الفقه وذلك التراث في حياتنا هذه، فإننا –في هذه الحالة– لن نستطيع أن نفعل شيئًا في استيعاب مشكلات عصورنا.

إن إخفاق "حركات التجديد" عبر تاريخنا الإسلامي، أو إخفاق الكثير منها، وخاصة بعض حركات التجديد المعاصرة حدث؛ لأنها كانت تنطلق في محاولة لتجديد الصلة بالتراث، بدلا من تجديد الصلة بالقرآن الكريم والسُنَّة النبوية. ومع النداء في الحقيقة يكون نداءً بالعودة إلى الكتاب والسُنَّة، فإنه عند التعامل الحقيقي تكون العودة إلى التراث الذي أنجزه آباؤنا

حول الكتاب والسُنَّة لا إليهما؛ ولذلك لم يكن يحدث التجديد بل يحدث التراجع؛ لأنَّ الجهد –آنذاك– يكون عبارة عن محاولة لإعادة إنتاج فترات تاريخية معينة، في فترات زمنية لاحقة مغايرة تمام، ويكون في ذلك تجاهل لسائر المتغيرات النوعية، إلغاءًا لسنن الصيرورة والتحول، وهما أيضا من سنن الله (جلّ شأنّه) ويكون في ذلك تصور بأنّ تغيرًا –نوعيا لا يجري في الحياة؛ فالناس هم الناس، والحياة هي الحياة، وأنّ التغيرات إن حدثت فإنها تغيرات كمية تراكمية، كانت شوارعنا في السابق ترابية وأصبحت معبّدة؛ كان الناس يعيشون في بيوت من الشعر، وأصبحوا يعيشون في بيوت من الحجر؛ كان الناس يأتون بالماء من الترع والأنهار، والآن لديهم ما يسمى بمصالح "إسالة الماء"، وأنّ التغيرات –كلّها– بين شكلي وكمي وليس هناك تغير نوعي. وفي هذه الحالة يكون منطلق التفكير منطلقًا سكونيًا، لا يؤمن بوجود حركة وتحول في مسيرة هذا الكون، ولا يرى صيرورة، ولكنه التراكم وحده. من يرى هذا سوف يجد نفسه مضطرًا لأن يقيّد الكتاب والسنة النبوية في مرحلة من المراحل التاريخية، ويحاول باستمرار إعادة إنتاج وإحياء تراث تلك المرحلة أو المراحل مرة بعد أخرى، وهذا في الحقيقة لا يمكن أن يحدث، ولا يمكن إعادة إنتاج أية لحظات مضت بأي شيء فيها، ولكن قد يتم تخيل إعادة الإنتاج ببعض الشكليات وببعض المظاهر.

فخواص القرآن هذه: التصديق والهيمنة والتجاوز والاستيعاب وهي المداخل التي يمكن أن ننطلق منها، ونحن نحاول أن ننظر إلى القرآن الكريم باعتباره معادلا للكون وحركته وما يحدث فيه، ويمكن أن يكون مرجعًا ليس للأمة الإسلامية –وحدها– ولكن للعالم كله؛ ويستمد القرآن الكريم هذه القدرة من محدداته وخواصّه المشار إليها.

حاكمية القرآن:

ومما تنبغي الإشارة إليه في إطار هذه المحددات، هو "حاكمية القرآن" ذاته. ماذا تعني حاكميّة القرآن؟ هناك مفهوم الحاكمية الإلهية، التي روّج لها المودودي وسيد قطب –يرحمهما الله– في الأوساط الإسلامية. فصار كثير من الناس يعتقدون أنّ هناك حاكمية إلهية، وأنّ الله (سبحانه وتعالى) في الدولة الإسلامية هو الحاكم. وهذه الحاكمية الإلهية تعني أن الحاكمين

عليهم أن يحكموا باسمه وبشرعه وأنهم ينوبون عنهم في تطبيق ما أمرت الأمة بتطبيقه، وتصور الحاكمية الإلهية قديمًا وحديثًا، في الحديث أهم من قال به ونشره وروج له أبو الأعلى المودودي، ثم تبعه سيد قطب –يرحمه الله– في هذا. وفكرة الحاكميّة الإلهية فكرة كانت قد انتهت في بني إسرائيل، وارتبطت بفكرة الاصطفاء والاختيار لبني إسرائيل، حين اختارهم الله (جلّ شأنه) كشعب له وأدخلهم الأرض المقدسة. كانوا يؤمنون أنّ الله (سبحانه) قد نصب نفسه حاكمًا عليهم، وأنّ الكيان اليهودي –آنذاك– يقوم على حاكم وشعب وأرض، فأخذ وجودهم صفات الكيان السياسيّ، ولكن الحاكم فيه هو الله (جلّ شأنه)، والتوراة تؤكد هذا المعنى، وكثير من النصوص يساعد على هذا الفهم، والله (جلّ شأنه) كان يبعث أنبياء بني إسرائيل فيكونون بمثابة الحجاب يحملون أوامره إلى الشعب، والتوراة تقول في قصة الألواح "فنادى الله موسى والشعب يسمع، وقال له: يا موسى خذ الألواح واحكم بين بني إسرائيل، وكان قد خط الألواح بإصبعه (جلّ شأنه) وكانوا يدّعون أنّ هذه هي طبيعة حكمهم، هم شعب الله، والأرض المقدسة مملكة الله، وهو الحاكم فيها. والله (جلّ شأنّه) في الكتاب الكريم يقول لنا في قصتهم أنه أدخلهم الأرض المقدسة وأنّه أمرهم ونهاهم إلى آخره، ومن جملة ما نرى أنه أثقل عليهم في التشريعات لكثرة انحرافاتهم وقتلهم أنبياءهم ﴿ **فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيرًا**﴾ (**النساء:160**) ونرى طبيعة العلاقة ﴿.. **وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا..**﴾ (**النساء:46**) ثم يقول ﴿ **وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ (**الأعراف:171**) ويشير إلى أنهم عندما يطلبون الماء يقول له ﴿.. **اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ..**﴾ (**الأعراف:160**) يريدون عدسًا، يريدون بصلًا، فيقول لهم ﴿.. **اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ..**﴾ (**البقرة:61**)، يريدون حلوى، فيقول لهم ﴿.. **وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ..**﴾ (**البقرة:57**) فهذه علاقة تلفت النظر. ثم تأتي مرحلة يصبح فيها أنبياؤهم ملوكًا وخلفاء عليهم. فكان خليفة الله فيهم نبيّه داوود، ونبي الله سليمان صار ملكًا ﴿ **وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ**﴾ (**الأنبياء:78**)، الحاكم وراءه حاكم فعلي أو مرجع

يفهمه، كيف يحكم وكيف يدير وبمَ يحكم..إلخ فملّوا الحاكمية الإلهية المباشرة وظنّوا أنها مصدر تعاستهم وانحرافاتهم، وأنّه لو صار عندهم خلفاء لنجوا من هذه المشكلة فجاء سليمان وداود، ثم ملّوا هذه الحالة فقالوا ﴿.. **ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ..**﴾ (**البقرة:246**) نريد أن نعيش حياة عادية كبقية الناس فبعث لهم طالوت ملكًا ﴿.. **قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ..**﴾ (**البقرة:247**) فإذن الحاكمية الإلهية انتهت ببني إسرائيل، ورسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– حينما ننظر في مهمته نجد قوله (تعالى) ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾ (**الجمعة:2**) والقرآن الكريم ينفي عنه صفة الجبر وينفي عنه السيطرة ﴿.. **وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ..**﴾ (**ق:45**) ﴿ **لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ**﴾ (**الغاشية:22**). مارس عليه –الصلاة والسلام– أمورًا يمكن أن تعتبر ذات صفة سلطوية أو صفة حكم، ولكن هذه الممارسة أنبأنا الله (جلّ شأنه) بأنّه ممارسة على مستوى الخلافة، والممارسة على مستوى الخلافة شيء وعلى مستوى السلطة والسيطرة شيء آخر. فالحاكميّة آلت إلى الكتاب الكريم، والخلافة إلى رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– وفي سورة المائدة آيات كثيرة توضح هذا المعنى، يمكن الرجوع إليها في مواضعها من سورة المائدة التي تدور –كلها تقريبا– حول هذه المعاني.

أود أن ألفت النظر إلى أنّ الحاكميّة أصبحت للقرآن الكريم في الرسالة الخاتمة بقراءة بشرية؛ أي أن المرجع والحكم في كل ما نحن فيه، هو هذا الكتاب. وهذا الكتاب يُقرأ قراءة بشرية، فالقاريء بشر يخطيء ويصيب ويجتهد ويفسر ويؤول، ويحصل على صواب وقد يقع في خطأ لأنّه بشر. فليست الحاكمية الإلهية كالحاكمية في بني إسرائيل فيها كل تلك المعاني.

خاصية العالمية:

صفة العالمية ظاهرة في سور ثلاثة هي: التوبة والفتح والصف ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ..**﴾ (**الفتح:28**) ورسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– في أحاديث عشر صحاح يفسّر لنا هذه الآيات، منها قوله –صلى الله عليه وآله وسلم)–"إنّ هذا الدين بالغ ما بلغ الليل والنهار" أو "إن هذا الأمر بالغ ما بلغ

الليل والنهار، ولن يبق بيت حجر ولا وبر إلا دخله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل "هل تعني العالمية هنا أن المسلمين سيفتحون الأرض كلها وسيحملون الناس على الإسلام؟ هل ستتكرر الحالة نفسها التي قامت في مرحلة الانتشار الأولى –دولة في المدينة يجري الانطلاق منها إلى غيرها؟ أم أنّ هناك شيئًا آخر؟ الله أعلم. قد بيّنا في دراسة سابقة كيف أصبح "المنهج" في عصرنا هو السائد؟ وكيف تداخلت الأنساق الثقافية والحضارية؟ وكيف أصبح هذا المنهج التجريبي العلمي يعلم الناس كيف يتعاملون مع الطبيعة والإنسان ومع قضايا مختلفة في أقطار الأرض كلها بشكل واحد وبمنطلقات واحدة فهل يعني هذا أننا نقترب الآن من العالمية وأنها يمكن أن تتحقق على هذا المستوى. وهل سيقوم القرآن الكريم بالتصديق على مناهج الأرض كما صدق على تراث النبوات، والهيمنة عليها واستيعابها وتجاوزها، وذلك معنى ظهور الدين على الدين كله، أي ظهور قيمه من هدى وحق وعدل وسواها، وجعل من هذه المشتركات الإنسانيّة منبثقة، عن الوحي المصدق المهيمن المستوعب المتجاوز بدلا من أن تنبثق عن تلك المركزية الغربية المتحكمة الآن، أو أن لله (سبحانه وتعالى) في ذلك شأنا آخر، والله أعلم، وهل يكون الظهور بتكرار ما كان قد مر أو بصيغة أخرى لا يعلمها إلا هو، لكن والله أعلم –ومن خلال ملاحظة كل ما حولنا–نرى أن المطلوب من المسلمين –اليوم– أن يجاهدوا الناس بهذا القرآن جهادًا كبيرًا، وأن يقوموا بعملية التصديق به على تراثهم، وعلى التراث الإنساني المعاصر كما جرى التصديق به على تراث النبوات كلها والهيمنة به على تلك الأنساق، ثم استيعابها وتجاوزها.

شرعة التخفيف والرحمة:

هذه المحددات المنهاجية تقتضي –أيضا– أن نتنبه إلى أن القرآن الكريم قد اشتمل على "شرعة تخفيف ورحمة" وحين نقارن بين شرائع من سبقنا وشريعتنا، نجد في شرائع من قبلنا إصرًا وأغلالا. لنأخذ اليهودية على سبيل المثال، اليهوديّة اشتملت على شرعة إصر وأغلال أدت بهم إلى التمرد على حاكمية الله (جلّ شأنّه) ثم تمردوا على خلافة أنبيائه، وطلبوا أن يكون لهم ملوك، يحكمونهم حكمًا مدنيا، ثم تمردوا على الحكم المدني هذا ولم يسمعموا ولم يطيعوا. والله (جلّ شأنه) قد بين اتجاهات التكليف والتشريع عندهم فقال ﴿ **فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيرًا**﴾

(**النساء:160**)، فمنطلق التكليف والتحليل والتحريم هنا تشديد العقوبة، يحرم عليهم شيئًا لا لأنه خبيث قد يضرهم، بل من أجل معاقبتهم ﴿ **مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا..**﴾ (**المائدة:32**) أما في شريعة القرآن فالله (سبحانه) يشرع الأحكام من منطلق مختلف، هو منطلق التخفيف والرحمة–مقتضى قوله (عزّ وجلّ) ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ (**الأعراف:157**)؛ وذلك لكي يستوعب أمم الأرض كلها؛ لأنّه لو شرع للناس شريعة إصر وأغلال كشريعة بني إسرائيل لثقلت عليهم. وإذا كان بنو إسرائيل قد تمردوا على شريعتهم؛ لأنّها كانت ثقيلة عليهم فكيف يستوعبه غيرهم؟ لكن حينما يأتي الإنسانيّة خطاب عالميّ للجميع يحمل شريعة تخفيف ورحمة، تضع عن الناس إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، تحل لهم الطيبات، وتحرم عليهم الخبائث، تستطيع البشرية أن تتقبلها.

فهي شريعة اقترنت برفع الحرج ﴿.. **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ..**﴾ (**الحج:78**) وتأكيد اليُسر ﴿.. **يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ..**﴾ (**البقرة:185**) ﴿ **يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا**﴾ (**النساء:28**) وكل هذه القواعد وكل هذه المباديء مترابطة بعضها مع بعض ﴿.. **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا..**﴾ (**المائدة:48**) ما كلفتم أن تأخذوا بشريعة بني إسرائيل، ولا كلفتم أن تخضعوا لذات المنهج الذي اخضعوا له. ﴿.. **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا..**﴾ (**المائدة:48**) وليس "لكل منكم جعلنا شرعة ومنهاجا" بل ﴿.. **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا..**﴾ (**المائدة:48**)، فكل أمّة لها شرعة ومنهاج، فخصائصكم وإيمانكم وإسلامكم وما ستكون لكم من ثقافة وهُوية، كلها ملاحظة بأن من شأن هذه الشريعة أن تقوم على مجموعة من الثوابت التي لا يمكن الاتفاق عليها، ولو أن دخلنا في التفاصيل فمن الصعب جدًا أن تكون هناك قدرة على الاستيعاب وعلى التجاوز.

هذه المحددات (هيمنة، تصديق، استيعاب، تجاوز، حاكمية الكتاب، عالمية الشريعة) كلها حين نضمها إلى بعضها يمكن أن تشكل معالم منهاجية إن لم تشكل منهجًا متكاملا مترابطًا، نستطيع أن نقوم به بعملية التصديق على تراثنا وعلى تراث سوانا، والسمة النبوية لا يمكن أن تأتي مناقضة للقرآن أو مخالفة له؛ أي أنّ القرآن مصدق مهيمن مستوعب متجاوز. وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لتراث النبوات السابقة، وبالنسبة لسنة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فما بالنا ببقية تراثنا، فالتراث كله قابل للمراجعة وقابل للتصديق عليه بالقرآن الكريم، وإبقاء ما يقرّه القرآن واستيعابه وتجاوز ما لا يقرّه. لا بد أن نأتي إلى البشر الآن على مستواهم العالمي هذا، وفي أنساقهم المعرفية والثقافية هذه، وهم يبحثون عن المشتركات بين البشر وتقدم لهم القرآن كتابًا كونيًا هاديًا للعالمية التي هي أقوم. قبل فترة عقد في جنيف مؤتمر مهم جدًا، شاركت فيه حوالي أربع وستون دولة. هذا المؤتمر كان كل همه أن ينبه شعوب الأرض إلى البحث عن المشتركات الإنسانية، وذلك للعمل على بناء الاتجاه أو التصور العالمي لدى إنسان القرن الحادي والعشرين. على اعتبار أنّ هناك خوفًا شديدًا من الصراع والحروب من أن تستمر وتهلك البشرية خاصّة إذا عرفنا أنّ روسيا الآن وحدها تملك ما يكفي لإبادة الكرة الأرضية كلها عشر مرات، وأمريكا تملك ضعف هذا.

في هذا الإطار نستطيع أن نقول: إذا استخدمنا هذا "المنهج" في مراجعة تراثنا الفقهي وتراثنا الأصولي، وتراثنا اللغوي، وتراثنا الحضاري، وتراثنا الثقافي، وصدقنا عليه بالقرآن الكريم فما يأمر بإبقائه يبقى، وما يتعارض ومنهجيته، ومنهجية رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في الربط بين قيمه وبين الواقع المعاش يستبعد، في هذه الحالة يصبح بين أيدينا تراث وفهم، ووعي قادر على إحداث "حالة التجديد" الحقيقي في دائرة أمتنا، وقادر على تزويدنا "بالمنهج" الذي يمكن أن نخاطب به العالم كله، وأن يجد آذانا صاغية ومشتركات كثيرة، وأن يقنع أصحاب أي نسق ثقافي أو حضاريّ بأنه قادر على استيعابهم وقادر على نقلهم من معاناة ما يعانونه الآن إلى الحياة الطيبة في هذه الحياة الدنيا وفيما بعدها.

هذه المحددات هي مجرد معالم لابد من استحضارها مع القيم الحاكمة ومع مقاصد الإسلام، ومع المباديء العامة للقرآن الكريم وتحكيمها بأشياء كثيرة جدًا، لقد حاولت استعمال هذه المحددات في مراجعة عجلى لعلم "أصول الفقه"، أعددت بحثًا صغيرًا بندوة

شاركت فيها، كانت مكرسة لمراجعة قضايا التراث فقلت: نحن نريد أن نصدق على تراثنا بالقرآن الكريم؛ ومنه قضايا "الفقه والأصول"، فوجدت في أصولنا قاعدة معروفة اسمعها "شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ" و "تكليف الكفار بفروع الشريعة"، هل يكلف الكفار بفروع الشريعة أو لا يكلفون؟ ووجدت مسألة زواج الإنس بالجن، وما إذا ادّعت الحمل من زنا مع جنيّ، هل يدرأ الحد بشبهة وطء الجني لها؟ فذهب بعض العلماء إلى أنه يدرأ الحد عنها بهذه الشبهة، لإمكانية وقوع الزنا بين جنيّ وبإنسية أو العكس عند بعض الفقهاء. ووجدت قضية "الشجاج والقصاص في الجروح"، ووجدت لبعض فقهائنا وخاصّة الشافعيَّة منهم بحثًا طويل في هذه الأمور استندوا فيه إلى قوله (تعالى): ﴿**وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ (**المائدة:45**) فقالوا "الجروح قصاص ولا بد من القصاص"، فتوقفوا في الجائفة (الجرح العميق الغائر في الرأس) وخشية أن يذهب المقتص إذا فعل إلى زيادة قد تؤدي إلى الموت، فماذا يفعل؟ فذكرني ذلك الفقه العجيب بقصة "تاجر البندقية" لشكسبير وزاد عندي هذا التساؤل حين تعرضوا لبحث قضية الأعور الذي يفقأ عين إنسان صحيحن فمثلا إذا كان هو أعور في العين اليمنى وفقأ العين اليمنى لآخر صحيح العينين فإن فقأ الحاكم العين العوراء فهذا لا يُعد قصاصًا، وإنّ فقأ اليسرى فمعنى ذلك أصبناه بالعمى لقاء جناية عور. فقد سبب هو عاهة العور في المجنى عليه، ولكن العقوبة كانت العمى بالنسبة إليه، وهذا ينافي العدل، فقالوا –في هذه الحالة– نجبره على قبول الدية. ما كان أغنانا عن هذا لو أنا عرفنا أن شريعتنا شريعة تخفيف ورحمة. ولو عرفنا أن هذا النوع من القصاص مصدّر بقوله (تعالى) ﴿**وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا**..﴾ (**المائدة:45**) لكن أخذنا "بشرع من قبلنا واعتباره شرع لنا ما لم يرد ناسخ "والناسخ موجود، فقد ورد نسخ رسالة بني إسرائيل كلها بالإسلام، فرسالة محمد –صلى الله عليه وآله وسلم– ناسخة لها على الكل وعلى الجملة، فبدلا من أن نلزم المسلم ببحث عن الناسخ الجزئي، فقد نسخت آيتهم بجملتها، فهذا التراث يجب أن يصدق عليه بالقرآن الكريم، وإلا لو عرضنا على الناس الآن مثل أحكام الأصر والأغلال؛ لتحول إلى عائق بين قبول الناس لخطاب القرآن الكريم، وقبول الإسلام والالتزام به. فإما أن نتشبث بهذا

التراث –كما هو– فنقع في الصد عن سبيل الله، وإما أن نصدق عليه قول بالقرآن الكريم وسنة رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم–.

بالنسبة للباحثين لا بد من استحضار هذه المحددات، وعندما يتعاملون مع النص القرآني، وحين يتعاملون مع تراثنا، فحينما أجد بحثًا كهذا في قضية الشجاج، وقضية زواج الجن بالإنس وقضايا مماثلة أخرى يلزمنا أن نتذكر تلك المحددات، وضرورة تصديق القرآن على مجمل تراثنا. ونحن نعرف أن القرآن قد قال إنه ﴿.. **يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ**..﴾ (**الأعراف:27**) وربنا (سبحانه وتعالى) ذكر الجن في سورة "الجن" في القرآن الكريم، ونؤمن بوجود هذا العالم، لكن الاتصال بيننا وبينهم معدوم، فللجن خصائصه ولنا خصائص، كالسمك الموجود في البحر، هو خلق آخر! فلماذا هذا الدمج، أبمجرد أن الخطاب القرآني شمله؟ فشمول الخطاب القرآني له شيء وخضوعه للأحكام المباشرة مثل أحكام التبادل والنكاح ونحوه شيء آخر.

وددت أن أذكر القُراء بهذه المحددات، ولكن أذكر –أيضا– أنه بدون التطبيق العملي ومحاولة استعمالها في مجالات معرفية مختلفة، والتصديق به على هذا التراث واستعمالها في إنتاج معرفة جديدة في المجالات الاجتماعية والإنسانية يصعب أن نرى أهميتها وقيمتها كمنهج باعتبارها منهجا أو أجزاء منهج في طريقة إلى التكامل، وإذا كناقد وصلنا إلى هذه الجملة من المحددات فقد يستطيع غيرنا –وذلك فضل الله وعطاؤه– أن يكتشف للقرآن الكريم محددات أخرى منهاجية لم نكتشفها نحن، وأخيرًا أشير إلى نقطة مهمة أن هذه المحددات ينبغي أن تستعمل في إطار قراءة الوقائع والأحداث والتصديق عليها، وتستعمل النتائج بعد ذلك لمراجعة تلك المحددات ومعرفة ما يمكن أن يضاف إليها، وكيف يمكن أن نكتشف بعد ذلك المباديء العامة.

ولذلك فإننا أحوج ما نكون إلى تأسيس علم المراجعات والتصديق بالقرآن على تراثنا والهيمنة عليه بكتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ لإعادة بناء أمتنا ووحدتنا به.

والله الموفق.